

## عقريّة إقبال ومصادر فكره وثقافته

\* عمّار أبو زكي

\*\* محمد ابو ذرخليل

### Abstract

*Object of this article is to enlighten serious Arabic readership with the intellectual contribution of Iqbal, the poet-philosopher of the East, for transforming Muslim societies to be a dynamic one. The medium by which he imparted his religio – philosophical and Socio-political ideas was his poetry. His Urdu Persian poetry meet the standards of world classics but its content apparently is modern and problem solving. Spirit of his poetics based in Quran and Sunnah of the Prophet (PBUH). Faith in Allah Almighty his understanding of Quran, self awareness and exercising prayers at midnight enabled him to be a universal and genius Poet. His impact on modern Islamic thought wide spread and quite inspirational but it needs to be examined yet Iqbal's thought is evolutionary, therefore, a feeling of continuous change can be realized by his poetry when it is read.*

المقدمة:

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على اشرف الأنبياء المرسلين- أمابعد! فهذا البحث الموجز أكتبه مساهمة متواضعة في دعم أدب محمد إقبال الشاعر القومي، لجمهورية باكستان الإسلامية الذي قد اشتهر بحكيم الأمة و شاعر الشرق، والدراسة هذه حول هذا الشاعر تهدف إلى التعريف بثقافته الشاعر الفكري للقاري العربي، وذلك لأن أهل شبه القارة الهندية كانوا وما زالوا على معرفة كافية وخاصة المتقنين منهم للعرب وآدابهم، وذلك لتمسكهم الدين الإسلامي، ولكن العرب ليسوا على معرفة كافية لأدب شبه القارة الهندية الباكستانية، وأماشاعرنا محمد اقبال فهو من أحاد شعراء العالم الإسلامي الذي فهم روح الإسلام ضمن نطاق النظريات الفلسفية ، وأن عظمته والصفة الفريدة لشعره تكمن في رسالته التي تحمل الأمل للمسلمين خاصة، وللنشر عامة نحو مستقبل زاهر، وأن شعره يُوصف بالحكم إذ لا يخلو بيت من شعره إلا وفيه حكمة بالغة، ولذا أنه لقب بحكيم الأمة، وكان الشعر قبله وسيلة لإخراج ما يضمرة الشاعر في قلبه من حب وهوى، وكان الشاعر قبل إقبال ترجمان الحب والعشق بمعناهما الأدنى، ولكن شاعرنا محمد إقبال هو الذي أخرج الشعر من قلبه القديم وأطلقه من القيود اللاضورية، واستخدمه لإبلاغ رسالته الخالدة وقدمه في الصورة التي بها يصل الإنسان إلى أوج ثرياه، وأنه من حيث كونه عالماً، وفيلسوفاً وداعية، وشاعراً أدى الأمانة وبلغ جميع ما كان عنده من المعلومات إلى الناس عن طريق هذا الشعر، وكان يود أن يكون الشعر مطابقاً لمقتضيات الإنسان ومرشداً له إلى أعلى منازل السلوك، وأنه كان يظن الشعر ميثاً الذي لا يوجد به الحركة والثورة في حياة البشر لأنه لا يسبب النمو في عقل الإنسان وذهنه، بل أنه كان يعتقد نظم الشعر العمل القديس، لأن الشاعر عنده رائد الأمة، حتى أنه كان يؤمن بأن الشعر جزء النبوة، ويقول في الصد:

\*الأستاذ المساعد، قسم اللغة العربية جامعة بهاءالدين زكريا، ملتان

\*\*أستاذ مساعد اللغة العربية، وأدائها، جامعة بهاءالدين زكريا، ملتان

کہ گئے ہیں شاعری جز ویست از پیغمبری  
ہاں سنادے محفل کو پیغام سروش<sup>(۱)</sup>

وإقبال جعل شعره ترجمان فكره وذهنه، ويجعل العلم والفراسة الجزء الأساسي للشعر الذي يسبب التطور العقلي لدى الإنسان حيث لا يفصله عن العقل والقلب، وما زال إقبال يهتم بهذه الفلسفة والفكرة في شعره، و نظم الشعر كله لبناء المجتمع السليم، وكان يعتقد بأن الفن هو المساعد الأول في حياة البشر، وعلى هذا الأساس كان يخيّل الفن من مخترعات الحياة وإبداعها، والفن الذي لا يطبع علي الحياة ولا يخلد على الدهر آثاره ليس جدير باسمه، والشعر هو الذي يخلد صاحبه، والشاعر هو الذي يوصل أمته إلى أعلى المرام، وباستطاعته أن يوقظ قومه من سباته الطويل، وهذا ما اجتهد له إقبال طول حياته أن يحققه في شعره وفلسفته.

ومن الصعب الكتابة باختصار عن رجل موسوعي متعدد الجوانب فكريا وثقافيا، يحظى مكانة مرموقة في ميدان الشعر والفلسفة والدين، ذلك أن إقبال هو أول رجل في شبه القارة الهندية الذي فهم الحياة الغربية وسياستها على حقيقتها، وكما أنه هو أول من دعا بقيام دولة إسلامية حقيقية لها كيانها في المستقبل في شبه القارة الهندية، فالموضوع طويل متعدد النواحي والجوانب، والمجال يقتضى الإختصار ولذا اقتصرنا هذا المقال بالتعريف عن عبقرية إقبال بصفة الشاعر والمفكر وثقافته.

و لعل من الضروري قبل ذكر ثقافته الفكرية تقديم موجز من حياته ليكون القاري العربي على معرفة من حياته.

ولد محمد إقبال في مدينة "سيالكوت"، إحدى مدن إقليم بنجاب عام ١٢٦٣ هـ الموافق ١٨٧٧م<sup>(٢)</sup> من أصل أسرة برهمنية كانت تسكن في كشمير، وقد أسلم أحد أجداده قبل قرنين من الزمان، وعرفت أسرته بالصلاح والتقوى وعليها نشأ وتربى شاعرنا إقبال.

تلقى تعليمه الابتدائي في بلده وقد اجتاز هذه المرحلة بتفوق دل على ذكائه المبكر، ثم التحق بكلية بلده التي تعرف فيها على أستاذه المربي "مير حسن"، الذي كان له أكبر الأثر في حياته الثقافية، إذ غرس الثقافة العربية والإسلامية في قلبه، وبقي إقبال يذكره طوال أيام حياته. ويكمل إقبال دراسته الجامعية في كلية الحكومة بمدينة لاهور<sup>(٣)</sup> فدرس فيها الفلسفة واللغة العربية والإنجليزية ونال منها شهادة "البكالوريوس"، بمرتبة إمتياز<sup>(٤)</sup> وفي لاهور تعرف محمد إقبال على الأستاذ الإنجليزي الشهير "توماس أرنولد"،<sup>(٥)</sup> ثم واصل دراسته الجامعية حتى حصل على "الماجستير"، في الفلسفة من جامعة بنجاب<sup>(٦)</sup> فعين أستاذاً للتاريخ والفلسفة في الكلية الشرقية بلاهور، ثم اشتغل أستاذاً للفلسفة واللغة الإنجليزية بكلية الحكومية التي تخرج منها. في فترة وجود إقبال في لاهور نظم إقبال قصيدته الأولى "جبل هماله"، ونشرت في مجلة "مخزن"، عام (١٩٠١م) ثم نظم عدة قصائد جميلة في هذه الفترة أيضاً جلبت إليه الأنظار، وكان لها دويماً كبيراً في الأوساط الأدبية والفكرية.<sup>(٧)</sup>

في عام ١٩٠٥م سافر محمد إقبال إلى لندن، حيث التحق بجامعة "كمبرج"، وحصل على شهادة عالية في الفلسفة والاقتصاد، ثم اتجه نحو ألمانيا فالتحق بجامعة "ميونخ"، حيث نال درجة الدكتوراه في الفلسفة في أطروحته "تطور الفلسفة الميتافيزيقية في إيران"، ثم رجع إلى لندن ليدرّس القانون ويجتاز إمتحان المحاماة ويلتحق بمدرسة علم الاقتصاد والسياسة.

ومن الجدير بالذكر أن محمد إقبال بذهابه إلى الغرب للدراسة لم ينس دينه وإسلامه، ولم يتأثر بالفلسفة الغربية، بل ظل أصيلاً في فكره وأدبه وشعره.  
و محمد إقبال وهو يعيش في الغرب ظل الإسلام والمسلمون مركز تفكيره، مضمون شعره، وموضوع محاضراته التي كان يلقيها في لندن. وعند مروره بجزيرة صقلية<sup>(٨)</sup> التي كانت يوماً ما جزيرة إسلامية، إذ بكى إقبال بفقدانها والتحاقها بالغرب، وقال قصيدته افتتاحها بقوله: إيك أيها الرجل دما لا دمعا فهذا مدفن الحضارة الحجازية. وعاد إقبال إلى بلاده عام ١٩٠٨م بعد أن درس مكونات الفلسفة الغربية وأصولها اليونانية، وتعمق فيها، فضلا عن دراسة القانون واشتغل بالمحاماة في لاهور حتى عام ١٩٣٤م. أي قبل وفاته بأربع سنوات.

محمد إقبال لم يعط كل وقته للمحاماة، إذ أن قرص الشعر وإلقاء المحاضرات عن الإسلام والفكر الإسلامي والتأليف كان يقضي فيها جل وقته، وهذا هو دأب الرجال العاملين للإسلام، حياتهم كلها فهي للدعوة والجهاد في سبيل الله بالقلم واللسان. وقد كان إقبال يحضر حفل "جمعية حماية الإسلام" السنوية وينشد فيها قصائده ودعي إلى إلقاء محاضرات في الفكر الإسلامي "بمدراس" عام ١٩٢٨م<sup>(٩)</sup> وقد جمعت هذه المحاضرات ونشرت بعنوان "تجديد التفكير الديني في الإسلام"<sup>(١٠)</sup>.

وفي عام ١٩٣٠م أنتخب إقبال رئيساً لحفلة الرابطة الإسلامية السنوية في (إله آباد)<sup>(١١)</sup> وعرض في خطبته فكرة باكستان لأول مرة، وانتخب عضواً في المجلس التشريعي في بنجاب، ومثل المسلمين في مؤتمر المائدة المستديرة الثاني عام ١٩٣١-١٩٣٠م. وبعد عودته من مؤتمر المائدة المستديرة، إشتراك في ٧ ديسمبر ١٩٣١م في المؤتمر الإسلامي المنعقد في القدس، ألقى محاضرة هناك، وبعد ذلك مر على مصر، وألقى محاضرة في دار الشبان المسلمين بالقاهرة عام ١٩٣١م. وفي عام ١٩٣٢م لبي دعوة السلطان الشهيدي (نادر خان) ملك أفغانستان في بعثة تتألف من (سر رأس مسعود) رئيس جامعة علي غرة الإسلامية، والأستاذ الكبير السيد "سليمان ندوي"، وخلال هذه الدعوة زار قبر السلطان "محمود غزنوي"، فاتح الهند، وقال قصيدته "غزني". وبقي إقبال عالماً عاملاً مجاهداً بقلمه ولسانه في سبيل الحق لآخر لحظة من حياته. ويحق له أن يتوفاه الله بعد ذلك والإبتسام الراضية على شفتيه، فما هو يستقبل الموت بشجاعة نادرة شجاعة المؤمنين قانلاً حسب ما ترجمه العلامة الندوي نثراً. "أنا لا أخشى الموت، أنا مسلم، ومن شأن المسلم أن يستقبل الموت مبتسماً"<sup>(١٢)</sup> وترجم هذه الكلمات العظيمة شعراً الصاوي شعلان<sup>(١٣)</sup>

يتلقى الدري بصبر جميل	وإبتسام الرضى على شفتيه
لا أرى مؤمناً يخالجه الخو	ف إذا أقبل القضاء عليه
أية المؤمن أن يلقي الردى	باسم الثغر سروراً ورضا

وأُنشد إقبال قبل وفاته بعشر دقائق هذين البيتين المعبرين عن عميق حبه للحجاز، حيث عاش الرسول (ص) وشوقه إليها وهو طالما تغني بها وهام بحبها، ولم يرزق زيارتها  
----- يقول إقبال حسب ترجمة الصاوي شعلان.

نغمات مزين لي هل تعود	و نسيم من الحجاز سعيد
أذنب عيشتي بوشك رحيل	هل لعلم الأسرار قلب جديد <sup>(١٤)</sup>
وتمضى اللحظات.... ويبقى الشعر عند إقبال هاجسه الأول والأخير والمعبر	

الحقيقي عن قلبه، وعقله وجميع معارفه وأسراره، فيها هو ينشد قبل وفاته مباشرة بيتين من الشعر، يحتاجان منا إلى وقفة مع إقبال المؤمن الصادق الإيمان، المسلم الصادق الإسلام، وقد ملأ الأمل قلبه بدخول الجنة التي وعد الله المتقين بها، والتي أعدت للمجاهدين والعاملين، ولا ينسى إقبال في هذه اللحظات الأخيرة من حياة المسلمين في الهند، وخضوعهم للإستعمار وفقدانهم حريتهم، فيحضهم على الجهاد في سبيل الله..... ويدعوهم إلى عدم الحزن لأن الجنة أعدت للشهداء والصالحين، وهذان البيتان حسب ما ترجمها الدكتور عزام:

قد أعدت جنة لأرباب الهمم  
فقل للمسلم الهندي لا تحزن  
ومن شعر إقبال

و جنة أخرى لعباد الحرم  
فكذلك للمجاهدين في سبيل الله جنة

نشان مرد مومن باتو كريم  
جو مرك آيد تبسم برلب أوست<sup>(١٥)</sup>

ترجمته

آية المؤمن أن يلقي الردي  
باسم الثغر سرورا ورضا<sup>(١٦)</sup>  
وانتقل بعدها محمد إقبال إلى الرفيق الأعلى وعلى فمه إبتسامة الرضى والإطمئنان في ٢١  
نيسان (ابريل ١٩٣٨م)

ثقافته الفكرية

كان شاعر نا الفيلسوف محيطا بعلم عصره و معارف بيئته وكان مثقفا بثقافات متعددة الألوان والأنواع، ولقد تعمق في دراسته للفكر الهندي والإيراني ونال قسطا وافرا من منابع التراث الروماني واليوناني قديمها وحديثها، ونهل قدراً وافراً من الثقافة الإنجليزية والألمانية والفرنسية والأمر يكية، هذا فضلاً عن الميراث الفكري الإسلامي والعربي، الذي صرف فيه إقبال معظم مجهوداته. أما اللغات التي أجادها محمد إقبال فهي: البنجابية لغته الأم، ولكن لم يكتب فيها شيئاً لأنها ليست لغة العلم والثقافة وأما الأردية والفارسية، فقد كتب بهما دواوينه وكثيراً من محاضراته وخطبه، وأما اللغة الإنجليزية فإنه كان مدرس الفلسفة واللغة الإنجليزية في كلية الحكومة بمدينة لاهور، كما أنه قام بتدريس اللغة العربية مدة غياب أستاذه (أرنلد) بجامعة لندن، وأنه قام بالتدريس لفترة قصيرة في جامعة كمبردج، وكما أنه كان عظيم الإتقان للألمانية والفرنسية، مع هذا كان يجيد العربية والسنسكريتية. وليس من نافلة القول أن ننقل هنا ما قاله الأستاذ سمير في معرفة شاعر نا باللغة العربية وتأثره بأدبها، فيقول: والأثر العربي في كلام إقبال يظهر بطرق مختلفة، فبعض الكلام واضح و صريح وبعضه بالإشارة والتلميح والبعض الآخر في الصور الخيالية، وهو يقول بصراحة أن العرب خالقي التمدن مؤسسى النظم الأخلاقية وبيّن أن العرب هم ساكنوا الصحراء وقاتحوا العالم والمحافظون عليه، وهم زينة العالم، وفي القصص التي استوحاها إقبال من القرآن والحديث ونظمها في شعره تأثر فيها إلى حد كبير ببعض عناصر الأدب العربي ويتضح هذا في بانك درا (صلصلة الجرس) حين نظم قصة الخضر فيجعلها شعر ونحس بأصوات الرحيل في الصحراء وقيط الرمال والقوفل تلقي رحالها حول ماء العيون كما نرى امتزاج روح الإسلام الصافية والشعر العربي السلسل، كذلك مناظر النخيل في الصحراء والواحات تلك التي لم يشاهد ها إقبال بعينيه، وذكره عن صحراء العرب فقد كان من نبات خياله، ولقد

أوحث كلمة النخيل وبيت المقدس لإقبال أن ينشد منظومته الشهيرة ” ذوق و شوق“ ويذكر فيها جبل أضم حيث تقع مكة في واديه، كما يذكر الكاظمة التي كان يطلقها العرب على منزل الحبيب.<sup>(١٧)</sup>

وخير دليل لمعرفة بالآداب العربية ما نقل عنه ابنه الدكتور جاويد إقبال، فيقول: بعد نقل بيت من الشعر العربي والتعليق عليه حيث اتخذته نموذجاً ممثلاً للشعر العربي وقال: لا يوجد في العالم شعر أكثر سذاجة وغرارة من الشعر العربي، لأنه مليئى بمشاعر البطولة والشجاعة والبسالة كما أنه متصف بالصراحة والجرأة، لأن الشاعر العربي له علاقة عميقة بالحقيقة، وأنه غنى عن تلون الكلام ولمعانه وبريقه، ما عدا المتنبي فإنه شاعر عربي باللفظ دون المعنى لأنه إيراني الأفكار والمعاني وعربي اللغة.(١٨)

وهكذا إذا نطالع إنتاج شاعرنا محمد إقبال الفكري سواء كان شعراً أو نثراً فنجد بها ذكر الشعراء العرب يقول الأستاذ سمير: ويذكر إقبال من الشعراء العرب المتنبي، المعري، عمرو بن كلثوم، البوصيري، كعب ابن نصير، زهير بن أبي سلمى وغيرهم، ففي أرمغان حجاز ضمن في شعره، بيت عمرو بن كلثوم: الشراب وما ارتويت<sup>(١٩)</sup>

يتضح لنا من هذه النصوص السالفة ذكرها مدى نبوغه وتبحره في الآداب العربية التي تعتبر قوام ثقافته ومصادر فكره، وذلك لأن فلسفة إقبال فلسفة الحركة والشجاعة وهذه الخصائص لا توجد إلا في الآداب العربية وما فيها من حركة دائمة كانت عاملاً هاماً وأساسياً في بناء النظام الفكري العام لإقبال.

ولعل من الضروري هنا أن نذكر العوامل التي كونت شخصية شاعرنا محمد إقبال وثقافته وذلك لأنني قرأت كثيراً من الكتاب والأدباء الذين كتبوا عن إقبال وعن حياته، وعن العوامل والأسباب التي كونت شخصيته وكما كتبوا عن مصادر فكره وثقافته ومنزلته ومكانة شعره بين شعراء عصره، ولكن أن ماكتبه الأستاذ الندوي عن إقبال وعن حياته وفلسفته فلعله أحسن وأجمل ماكتب وقيل في إقبال وفكره. لذا أرى لزاماً علي كباحث في إقبال وثقافته أن أنقل هنا ولو بالإيجاز العوامل التي ذكرها الأستاذ الندوي في تكوين شخصية محمد إقبال حيث يقول: لقد تخرج محمد إقبال من مدرستين، أما المدرسة الأولى فهي مدرسة الثقافة العصرية والدراسات الغربية، فلم يزل يتقلب في فصولها ودروسها ما بين الهند وانجلترا وألمانيا، ويقراً على أساتذتها البارعين ويرتوي من مناهلها حتى أصبح من أفاض الشرق الإسلامي في ثقافته الغربية أخذ من علوم الغرب وثقافته وحضارته، من فلسفة، وإجتماع، وأخلاق، واقتصاد، وسياسة، ومدنية غاية ما يمكن لغربي متخصص فضلاً عن شرقي متطفل، وبلغ بدراسته إلى احشاء الفلسفة القديمة والجديدة، هذا إلى توسع في الآداب الإنجليزية والألمانية والشعر الغربي في مختلف أدواره وعصوره ودراسة الفكر الغربي في مختلف أطواره ومراحل حياته.<sup>(٢٠)</sup> ويقول في هذا الصدد الأستاذ سمير: لو قرأ إنسان الرومي والجيلي والفلسفة الإسلامية، الفلسفة الهندية القديمة والفلسفة الأوروبية الحديثة والشعراء الألمان والإيطاليين والإنجليز، وكذلك الغزل الفارسي والغزل الأردني، ثم قرأ إقبال فإنه يحس أن إقبال قد قرأ كل هذه الأشياء وتأثر بها وكل هذا يعتبر من مصادر فكره من الشرق والغرب.<sup>(٢١)</sup>

### المدرسة الثانية:

هذه كانت مدرسة شاعرنا الأولى التي تخرج بها الجامعة للعلوم القديمة والحديثة شرقا وغربا لو وقف شاعرنا عند هذه المدرسة واقتصر على ثقافتها ودراستها لما زاد إلا أن يكون شاعر ا مجيدا أو محاميا ناجحا في مهنته، ولكن الفضل في عبقرية إقبال وخلود آثاره ونفوذته في العقول والقلوب، وكله يرجع إلى المدرسة الثانية التي جعلته شاعرا ثائرا وفيلسوبا عظيما، فيصفها الأستاذ الندوي قائلا: إنها مدرسة توجد في كل مكان وزمان- وهي أقدم مدرسة على وجه الأرض----- إنها مدرسة داخلية تولد مع الإنسان- ويحملها الإنسان معه في كل مكان هي مدرسة القلب والوجدان، هي مدرسة تشرف عليها التربية الإلهية وتمدها القوة الروحية- قد تخرج محمد إقبال في هذه المدرسة، كمال تخرج كثير من الرجال الموهوبين، وحدث عنها كثيرا في شعره، ورد إليها الفضل في تكوين سيرته وعقليته وأخلاقه وشخصيته، وصرح مرارا بأنه يدين لهذه المدرسة ما لا يدين للمدرسة الخارجية، وأنه لولا هذه المدرسة وتربيتها لما ظهرت شخصيته، ولما اشتعلت موهبه، ولا اتضحت رسالته، ولا تفتحت قريحته، وقد حدثت عن معلمي هذه المدرسة وأساتذتها كثيرا وذكر فضلهم عليه. (٢٢) ومن قوام هذا المدرسة الثانية العوامل التي كونت شخصية إقبال وأشعلت فلسفته فجعلتها ملتوية كالنار، حمراء كالدم، متصفة بالخلود وناطقة بالأمل- وفيما يلي نذكر بعض العوامل التي هي من أهم مقومات فكره وعناصر فلسفته.

### العامل الأول: الإيمان

والإيمان لم يزل مربيا له ومرشدا، ولم يزل مصدر قوته ومنبع حكمته ليس إيمان محمد إقبال هو الإيمان الجاف الخشب الذي هو مجرد عقيدة أو تصديق بسيط، بل هو مزيج إعتقاد وحب، يملك عليه القلب والمشاعر والعقل والتفكير والإرادة والتصرف والحب والبغض. وقد كان شديد الإيمان بالإسلام ورسالته، قوى العاطفة. شديد الإخلاق والإجلال لرسول الله صلى الله عليه وسلم □ متفانيا في حبه، مقتنعا بأن الإسلام هو الدين الخالد الذي لا تسعد الإنسانية إلا به، وأن النبي هو خاتم الرسل، والبصير بالسبل، وإمام الكل- ويرجع محمد إقبال الفضل في تكوين شخصيته، وتماسكه أمام المادة مغرياتها وتيار الحضارة الغربية الجارف إلى الإتصال الروحي بالنبي صلى الله عليه وسلم، وحبه العميق له، ولاشك ان الحب هو خير حاجز للقلب، وخير حارس له إذا احتل قلبا وشغله، منعه من أن يغزوه غيره، أو يكون كريشة في فلاة، أو يعيث به العابثون، يقول: "لم يستطع بريق العلوم الغربية أن يبهر لبي، ويغشى بصري، وذلك لأنني اكتحلت بأئمة المدينة----- هذا هو إيمان محمد إقبال وحبه. ومن تتبع التاريخ عرف أن الحب هو مصدر الشعر الرقيق، والعلم العميق، والحكمة الرائعة. والمعاني البديعة، والبطولة الفائقة، والشخصية الفذة. والعبقرية النادرة- وإليه يرجع الفضل في غالب عجائب الدنيا----- (٢٣) هذا هو الإيمان والحب للذين اتصف بهما إقبال وتسببا المزيد في تثقيفه، وإذ أنه يقتضي من الآخرين الإيمان والحب مثل إيمانه وحبه. ونحن إذا نطالع آثاره الشعرية نجد قوى الإيمان، قوى العاطفة. وكل ذلك بسبب المدرسة الثانية الفكرية التي أحسنت تربيته وتثقيفه فجعلته من رواد شعراء الحب والإيمان -

### العامل الثاني: القرآن الكريم

العامل الثاني الذي لم يزل مربيا له ومرشدا، وعاملا هاما وعنصرا أساسيا الذي يرجع إليه الفضل في تكوين شخصيته وعقليته، وركنا أساسيا لتلك المدرسة الثانية التي

تخرج بها إقبال، فهو أستاذ كريم لهذه المدرسة وإمام مبين لا يأتية الباطل من بين يديه ولا من خلفه إذ يهدى به جميع الناس في ظلمات البر والبحر، ألا وهو القرآن الكريم، فيقول الأستاذ الندوي: فلذلك الأستاذ العظيم هو القرآن الكريم، الذي أثر في عقلية إقبال وفي نفسه ما لم يؤثر فيه كتاب ولا شخصية. ولكنه أقبل على قراءة هذا الكتاب إقبال رجل، حديث العهد بالإسلام، فيه من الإستطلاع والتشوق ما ليس عند المسلمين الذين ورثوا هذا الكتاب العجيب، فيما ورثوه من مال ومتاع ودار وعقار. وقد وصل هذا المهتدي إليه بشق النفس وعلى جسر من الجهاد والتعب، كان سرور محمد إقبال باكتشاف هذا العالم الجديد من المعاني والحقائق أعظم من سرور "كولمبس"، لما اكتشف العالم الجديد ونزل على شاطئه.... لقد كانت قراءة محمد إقبال للقرآن قراءة تختلف عن قراءة الناس، ولهذه القراءة الخاصة فضل كبير في تذوقه للقرآن، واستطاعته إياه. (٢٤) وخير ما حكى لنا الأستاذ الكيلاني في هذا الصدد فقال: وقد حرص أبوه المربي الفاضل على الا تكون قراءة (إقبال) كلمات تلقى، وآيات تتلى وإنما قال له: "يا بني إقرأ القرآن، كأنه نزل عليك...." وفي ذلك يقول (إقبال):

"..... ومنذ ذلك اليوم بدأت أفهم القرآن وأقبل عليه فكان من أنواره ما اقتسبت ومن بحرته ما نظمت!....." (٢٥)

وهكذا يذكر لنا الدكتور حسين مجيب المصري علاقته بالقرآن قائلاً: وإن إقبال ليحمل القرآن في عقله المفكر، حمله له في قلب المؤمن، ولما كان مفهوم الدين عنده السعي الدائب وراء حياة أفضل، اعتمد الدين في نظره على أساس من التجربة. وها هو يجعل الجملة الأولى في مقدمة كتابه "تجديد التفكير الديني في الإسلام" أن القرآن الكريم كتاب عنايته بالعمل فوق عنايته بالرأي. والحق أنه اتخذ من القرآن جوهرأ لكتابه هذا..... ويستشهد إقبال بقوله تعالى: (قل هو الله أحد) ولم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد) على فردية أو وحدانية الذات الأولى التي أطلق الله اسم علم عليها هو الله. ويفهم من ذكر القرآن للذات الإلهية غير مرة، دليلاً على إشارته على الفردية الكاملة. (٢٦) وهكذا مازال محمد إقبال يفكر في القرآن وعلومه إلى آخر حياته، ويجعله إماماً حياً وهداية للناس جميعاً ووجد في القرآن ما أقام به الدليل على ما ذكره وجعل من أي الذكر الحكيم دعائم لدعاويه.

العامل الثالث: معرفة النفس

ولعل الركن الأساسي لفكر إقبال الذي هو أصل الأصيل لفلسفته الذي قام عليه بناء الفلسفة الذاتية وبه اشتهر شاعرنا بحكيم الشرق، وفي هذا الصدد يقول الأستاذ الندوي: وقد كان إقبال كثير الإهتمام بمعرفة النفس، يرى أن العبد يسمو بها إلى درجة الملوك بل يعلوهم إذا كان جريئاً مقداماً. يقول في قصيدة ما معناه:

"إن الإنسان إذا عرف نفسه بفضل الحب الصادق وتمسك بأداب هذه المعرفة انكشف على هذا المملوك أسرار الملوك. إن ذلك الفقير الذي هو أسد من أسود الله. أفضل من أكبر ملوك العالم. إن الصراحة والجرأة من أخلاق الفتيان، وأن عباد الله الصادقين لا يعرفون أخلاق الثعالب"..... وقد كانت هذه المعرفة من كبار أنصار شخصيته ورسالته، ومما انتفع بها الإسلام إنتفاعاً عظيماً..... ولا نعرف شاعراً أو أدبياً يرجع إليه الفضل في تأسيس دولة وتهيئة النفوس لها مثل ما يرجع إلى هذا الشاعر الإسلامي. (٢٧)

### العامل الرابع: القيام في آخر الليل

من كبار الأساتذة لمدرسة إقبال الثانية التي تخرج بها هو القيام في آخر الليل أمام الذات الأولى التي هي خالق كل شئ. ويقول الأستاذ الندوي: والمربي الرابع الذي يرجع إليه الفضل في تكوين سيرته وشخصيته، وفي قوة شعره وتأثيره، وجدة المعاني وتدقيق الأفكار هو أنه لم يكن يقتصر على دراسة الكتب، والإشتغال بالمطالعة، بل كان يتصل بالطبيعة من غير حجاب، ويتعرض للنفحات السحرية، ويقوم في آخر الليل، فيناجي ربه، ويشكو بئنه وحزنه إليه ويتزود بنشاط روحي جديد، وإشراق قلبي جديد وغذاء فكري جديد، فيطلع على أصدقائه وقرائه بشعر جديد، يلمس الإنسان فيه قوة جديدة، وحياة جديدة، ونوراً جديداً، لأنه يتجدد كل يوم، فيتجدد شعره، وتتجدد معانيه. وكان عظيم التقدير لهذه الساعات اللطيفة التي يقضيها في السحر، ويعتقد أنها رأس ماله ورأس مال كل عالم، ومفكر لا يستغنى عنها أكبر عالم أو زاهد، يقول في بيت ما معناه: "كن مثل الشيخ فريد الدين العطار في معرفته، وجلال الدين الرومي في حكمته، أو أبي حامد الغزالي في علمه وذكائه، وكن مع من شئت في العلم والحكمة، ولكنك لا ترجع بطائل، حتى تكون لك أنفقي السحر. وكان شديد المحافظة على ذلك كثير الإهتمام به يقول في مطلع قصيدة ما معناه: رغم أن شتاء انجلترا كان قارساً جداً، وكان الهواء البارد يعمل في الجسم عمل السيف، ولكني لم أترك في لندن التكبير في القيام.<sup>(٢٨)</sup>

### العامل الخامس: صحبة المرشد

ويرى إقبال أن صحبة المرشد شرط لازم لكل من يريد الرقود من سباته الطويل، وأنها عنصر أساسي لتلك المدرسة الثانية التي تخرج بها إقبال، ويعترف صراحة في مقدمة ديوان الأسرار بأن جلال الدين الرومي هو الذي أيقظه ونبهه ويعترف لجلال الدين بالإمامة في مواضيع كثيرة من كتبه ويجعله دليله وهاديه في سفره إلى الأفلاك. ولم يزل إقبال يعرف له الجميل، ويحفظ له هذا الفضل، ويذكر في كثير من أبياته. ويعزو إليه كثيراً من الحقائق والحكم. يقول في بيت يخاطب فيه أحد المأخوذين بسحر الغرب: "قد سحر عقلك سحر الأفرنج، فليس لك دواء إلا لوعة الرومي وحرارة إيمانه.<sup>(٢٩)</sup> هذه هي العوامل البارزة التي كونت شخصية محمد إقبال وثقافته وكان هو أحد المتقنين البارزين من الصف الأول في العالم الإسلامي، وأنه الشاعر والمفكر والفنان والعبقري العظيم من الصفوة النادرة من عظماء التاريخ البشري الطويل ومن أكثرهم تنوعاً في مجالات النشاطات الثقافية الإنسانية، وأنه لم يكن مقلداً صرفاً، بل كان صاحب ابتكارات وخلق وابداع. فقد جاء بجديد لم يكن له نظير في عصره في العالم الإسلامي.

### الحواشي

- ١- كليات إقبال (اردو)، محمد إقبال، شيخ غلام علي پبلشرز، لاهور، باكستان، ١٩٧٣م، ص ١٨٩.
- ٢- حسب تقرير بلدة سيالكوت لتسجيل الإحياء والأموات الصادرة في مجلة (انقلاب) اليومية بتاريخ ٧ مايو ١٩٣٧م، الموسوعة الإسلامية، ج: ٣ ص: ٧.
- ٣- عاصمة إقليم بنجاب
- ٤- التي هي ما تسمى في الهند وباكستان، شهادة (B.A) وتعادل الشهادة العالية أو الليسانس في العالم العربي.



- ٥- مستشرق انجليزي، اشتغل بالتدريس في كلية "على غرة"، بالهند، ثم أستاذا للفلسفة في كلية لاهور.
- ٦- وتسمى شهادة (M.A) في الهند وباكستان- وتعادل العالمية أو الماجستير في العالم العربي.
- ٧- روائع إقبال، لأبي الحسن الندوي: المكتبة العلمية، لاهور، باكستان، ١٩٩٦، ص٢٢.
- ٨- صقلية: جزيرة في البحر الأبيض المتوسط مقابل الساحل الإيطالي
- ٩- مدينة في الهند وهي تسمى الآن "أغره"
- ١٠- ترجمه إلى العربية الأستاذ عباس محمود بهذا العنوان، ونشر في القاهرة ١٩٠٠م.
- ١١- مدينة بالهند
- ١٢- روائع إقبال، لأبي الحسن الندوي، ص: ٣٠.
- ١٣- الأعلام الخمسة للشعر الإسلامي: الأستاذ أعظمى والصاوى شعلان، دار الكتب المصرية قاهرة، مصر، ص ٨٣.
- ١٤- المصدر السابق: ص٨٥.
- ١٥- كليات إقبال (فارسي): إقبال شيخ غلام على پبلشرز، لاهور، باكستان، ١٩٧٣م، ص١٥.
- ١٦- محمد إقبال سيرته وفلسفته وشعره، للدكتور عبدالوهاب عزام: المكتبة العلمية، لاهور، باكستان ص ٤٤.
- ١٧- إقبال وديوان أرمغان حجاز، للأستاذ سمير إبراهيم عبدالحميد: المكتبة العلمية، لاهور، باكستان، ص ٨٤.
- ١٨- شذرات فكر إقبال، للدكتور جاويد إقبال: مكتبة نعمانية، لاهور، باكستان، ص ١٢٧-١٢٦.
- ١٩- إقبال وديوان أرمغان حجاز، للأستاذ سمير عبدالحميد إبراهيم: ص٥٨.
- ٢٠- روائع إقبال، للأستاذ أبو الحسن الندوي: ص٣١-٣٢.
- ٢١- إقبال وأرمغان حجاز، للأستاذ سمير عبدالحميد إبراهيم: ص٨٣.
- ٢٢- روائع إقبال: ص٣٧.
- ٢٣- المرجع السابق: ص٢٤، وما بعدها
- ٢٤- المرجع السابق: ص٤١-٤٢.
- ٢٥- إقبال الشاعر الثائر، للأستاذ نجيب الكيلاني: مؤسسة الرسالة، الشركة المتحدة للتوزيع بيروت، لبنان، ص٢٤.
- ٢٦- إقبال والقرآن، للدكتور حسين مجيب المصري: مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، مصر ١٩٧٨، ص ١٣٧-١٣٥.
- ٢٧- انظر روائع إقبال ص٤٤-٤٩.
- ٢٨- المرجع السابق: ص٥٠.
- ٢٩- المرجع السابق: ص٥٢-٥٣.